ما يشبه وداعاً للمقاتل

أمس، شيعت رام الله ممدوح نوفل. مجندون فتيان وقفوا على المفارق المؤدية إلى المقاطعة حيث أقيمت مراسم عسكرية هادئة للجثمان القادم عبر الجسر. كان يمكن، أيضا، سماع هدير الطائرات الحربية، التي تنطلق نحو الشمال ليتحول الأمر كله بعد دقائق إلى "خبر عاجل" على شاشات الفضائيات عن تدمير جسر، أو بيت، أو غرفة، أو برج كهرباء في لبنان! . . فيما يشبه مشهداً قديماً يتكرر منذ الأزل.

في صيف ١٩٨٢، تحديداً في مثل هذه الأيام، كان ممدوح نوفل يتجول بجسده المكتمل في مناطق التماس، محاطاً بمجموعة مختارة من المقاتلين الذين احتفظ بهم للحظة الأخيرة، كانت الحرب هي المشهد الوحيد في ذلك الصيف، وكان حصار بيروت قد اكتمل تماماً، وبدا أن مجزرة هائلة تتقدم من الجبال والبحر ونقاط التماس وبواباته، وكانت قذائف الطائرات وهديرها يحرثان الجزء المحاصر من المدينة، حيث كنا نتنفس ونواصل المشي في شوارع تضيق وتتضاءل وتنسحب من تحت أقدامنا مثل حصائر قش منسولة:

لا يمكن تذكر بيروت في ذلك الصيف دون أن نجد مكاناً ملائماً لممدوح نوفل، الحيوية الاستثنائية واليد التي تصل إلى كتفك مثل نهاية سعيدة، الغبار الذي ستتركه مغادرة القائد متبوعاً بمجموعته

المختارة، الابتعاد عن مناطق الاستعراض، وتأليف غرف العمليات، وارتجال الحركة السليمة في اللحظة القاتلة، . . لم نكن قريبين تماماً، ولكنني كنت أراقبه من مقعدي البعيد، قليلاً، عن الحرب، بينما كان هو ابن هذه الحروب الشرعي، وكان يتصرف بقوة تلك البنوة الغريبة وشرعيتها!

كان مروره الخاطف في الليل المتأخر إشارة ضرورية إلى أننا أحياء، وأن الأمور بخير، وبينما كان وقع قدميه متبوعاً بمجموعته المختارة تلك، وهو يغادر في العتمة كان الأمر برمته – نحن وهو ومقاتلوه السبعة– أشبه بثغرة في سياج تلك الحرب وأطواقها المتلاحقة!

فيما بعد، سألتقي به في "حرب الجبل" وهي حرب منسية تماماً حدثت في خريف ١٩٨٣، وكانت ارتال المقاتلين تندفع نحو بحمدون وعاليه، وتنحدر في طريق ترابية نحو بيصور للإحاطة بـ"سوق الغرب" . . وكانت دبابات الاحتلال تتراجع نحو الساحل.

فجأة، ظهر من العتمة على الطريق إلى "بحمدون"، وكان يقف هناك وحيداً على طرف الطريق، وكان من الصعب تفسير ذلك الظهور الغريب، كان معنياً بكل شيء كيف يتحرك المقاتلون، شدة القصف، الخبز، الماء، سخونة الطعام. . . . المنامات! قبل أن يعود إلى سيارته التي تركها تحت دغل على جانب الطريق ويندفع في تلك الجبال، حيث تحترق القرى وترتفع أعمدة الدخان من الوديان!

بعد عودته إلى رام الله، التي أحدثت ضجة واعتراضات شديدة من أجنحة متنفذة في حكومة رابين، أجرى انعطافة عميقة في اهتماماته، وبدأب المقاتل القديم وعناده واصل بحثه ودراسته، وأسس لنفسه مكاناً واضحاً كباحث ومتخصص في الشأن السياسي الفلسطيني.

بهدوء غادر ممدوح نوفل مقعده، بشجاعة من أحب الحياة وأحبته، وفي ذاكرته أجندة طويلة لحروب الفلسطينيين الطويلة بينما حرب جديدة تعوي في بيوتنا وشوارعنا.

المجندون الفتيان الذين وقفوا على مفارق الطرق المؤدية للمقاطعة، وأولئك الذين قاموا بتحية الجسد المسجى قد لا يعرفون الكثير عن القائد الذي فقدناه ولكنه كان سيحب أن يراهم هناك في بزاتهم العسكرية وأجسادهم الشابة، وكان سيضع يده على اكتفاهم الفتية لو استطاع، أو لعله فعل ذلك!

غسان زقطان

رام الله

أخو غبار الحرب زميل مداد القلم

هل أنعى ممدوح نوفل كآخر "المغبّرين" . . أم أدعو لرفيق حروبه "فرحان" بطول العمر، باعتباره "مغبراً" آخر؟ ماتت أمي وهي تسأل عن "الشباب" واحداً واحداً، لأنها غسلت ملابسهم الفدائية المغبرة (والمقملة أيضاً) . . وكذا جواربهم وملابسهم الداخلية .

لكم أن تتصوروا رائحة جوارب الفدائيين، بعد أن احتبست أقدامهم أسبوعا بأيامه ولياليه في أحذيتهم الفدائية، أو عدد "القمل" في ثنايا ثيابهم المرقطة، بعد أن حرموا أسابيع من حمام ساخن في قواعدهم "السرية" في الجولان المحتل، أو شدة قرصة المعدة، التي تصرخ "طبيخ يمّة . . طبيخ"؟ . سئموا معلبات الحرب .

قبل شهور، ربما زهاء العام، سألتني تلك السيدة: ألم تعرفني؟ كلا! . . أنا زوجة "فرحان" . أخشى أن ينقر رجل كهل على كتفي ويسألني: ألم تعرفني؟ . . أنا فرحان .

سررتُ أن "فرحان" على قيد الحياة. هناك، إذا، واحد من "المغبرين" لا يزال فوق الأرض حياً يرزق، وليس تراباً تحت التراب في مكان ما. كان فرحان أمهر الفدائيين في رماية الهدف.

عشر سنوات وأمي تسألني في قبرص عن "الشباب" واحداً واحداً. كان سرورها طافحاً عندما علمت أن ممدوح يقود قوات "التمدد العرفاتي"، حسب النعت السوري. قالت: "الشباب تعقلوا". وضحكت، فقد زجرتهم عندما كانوا، أواخر حقبة الستينيات وطيلة حقب السبعينيات يوجهون نقداً حاداً لعرفات. قالت لهم: مش كل زلمة يصير زعيماً؛ مش كل زعيم يصير زعيماً على الفلسطينيين.. وأبو عمار زعيمنا!

ماتت أمي، دون أن تدري أن ممدوح نوفل صار واحداً من المستشارين العسكريين لياسر عرفات، لكن ممدوح، الذي التقيته في رام الله بعد انقطاع قبرصي طويل، سُرّ لأنني حملت أمانة أمي له.. وطبعت قبلتين على وجنيته.

سيستعير الشعر من الزهور، وسأقول مع القائلين إن الرعيل الفدائي الأول كان بمثابة "غبار الطلع". ربما مثل غبار "الخرفيش" الشائك، الرقيق جداً، والذي تحمله أجنة الريح وتبعثره في أركان الجهات كلها (الجبهات كلها) وأشكال الميتات كلها، ولقد مات "الأغبر" خالد نزال برصاصات "الموساد" في أثينا، تاركاً زوجته "ريما" تتذكره كل عام على رقعة صغيرة من جريدة "الأيام".

إنما ممدوح، المضمخ بغبار الأغوار، والجولان، ولبنان، دخل التاريخ الوطني، العسكري والسياسي والأدبي، وحوّل أعمق التجربة إلى مشارف بدايات الوعي. شارك في صنع الحدث العسكري والسياسي، وشارك في تدوينه، وأضاف لمكتبه التوثيق والذاكرة الفلسطينية زاداً عظيماً للمؤرخين.

بقيت على وجه ممدوح تلك الغلالة الغبراء، ثم تلك السحابة الملونة (ابتسامة جميلة)، ثم هطل السحاب غزيراً في ثلاثة – أربعة كتب عن ملحمة فلسطينية كان واحداً من المشاركين

فيها، ثم واحداً من قادتها . . وأخيرا واحداً من موثقيها العسكريين والسياسيين .

كان لي أن أكون واحداً من زمرة صحافيين عتاق، وزع عليهم ممدوح "بروفة" كتابه الأول، وفي كتابه الثاني عن معارك "مغدوشة" وشرقي صيدا ١٩٨٥ - ١٩٨٦، غرقتُ في تفاصيل حرب جنوب لبنان، التي كنت أقرأها وأحررها في نيقوسيا، ثم أغرقتني في تفاصيل السياسة البرلمانية - الفصائلية في كتابه عن "ليلة انتخاب الرئيس"، أو اليوم الطويل الذي سبق وعاصر وتلا "إعلان الاستقلال" دولة فلسطين ١٩٨٨ . . ثم كتب شهادته، أيضا عن أسباب الطريق الذي قادنا إلى أوسلو . قد يصبح الصخر غباراً . . والماء ندى وكلأ .

. . . . .

حياة مدوح ليست كحياتي تماماً، لكن تاريخ حياتي مشتبك تماماً مع تاريخ حياته . هو إلى غبار المعارك (أخو الحرب أغبرا) وأنا إلى مداد الحبر . . ثم جعل غبار الحرب مداد حبر حفر في ذاكرتي وذاكرة الأحياء من "جيل غبار الطلع" الدرس الضروري لوعي التجربة . . والأمانة التامة والمسؤولية في نقل التجربة، لأنه ذهب للبنان ليستأذن وليد جنبلاط نشر "أمور حساسة"، فقال له: "انشر" .

كيف لي أن استأذن رفيقة حياته "فيرا" نشر أمور عن رائحة أقدام الفدائيين، بل عن "القمل" في ثيابهم المرقطة، حيث كانت أمي تأخذ ثيابهم كلها إلى الماء في درجة الغليان . كم إبريق شاي كان علي أن أقدمها لأخي ورفاقه "المغبرين"؟

كانوا يقبلون أيديها وينادونها "يمّة" وكانت تُقبل رؤوسهم وتناديهم "يمّة"، وتملأ معداتهم "طبيخاً" . . وعندما سمعت مني في نيقوسيا عن سقوط خالد نزال، قالت: "يا حسرتي" . قلت: هل نتوقف؟ قالت: لا . . هذه طريق مشيناها ولازم نكفّيها!

"أخو الحرب أغبرا" كما قال الشاعر القديم، وكان ممدوح أخا حرب . . وكان حليف أحلام سلام . . وكان شاهداً على ما صنع وما نصنع . . حرباً وسلماً وسياسة .

اعتاد أن يقبل يدي أمي بالشام . . واعتدت في رام الله أن اقبل يدي زوجته "فيرا" . .

واعتاد جيل "غبار الطلع" أن يملأ جهات الأرض ببذور التجربة والوعي.

سلام لك ممدوح.. وسلام عليك. شدي حيلك "فيرا"!

حسن البطل

رام الله